

(٣٣)

باب قول الله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]).

لشئ: قصد المصنف رحمه الله بهذه الآية التنبيه على أن الأمن من مكر الله من أعظم الذنوب وأنه ينافي كمال التوحيد، كما أن القنوط من رحمة الله كذلك وذلك يرشد إلى أن المؤمن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء، كما دل على ذلك الكتاب والسنة وأرشد إليه سلف الأمة والأئمة.

ومعنى الآية: أن الله تبارك وتعالى لما ذكر حال أهل القرى المكذبين للرسول بين أن الذي حملهم على ذلك هو الأمن من مكر الله وعدم الخوف منه، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسًا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (١) أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسًا ضَعِيفًا وَهُمْ يَلْمِزُونَ ﴿٢﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩]. أي الهالكون. وذلك أنهم أمنوا مكر الله لما استدرجهم بالسراء والنعيم، فاستبعدوا أن يكون ذلك مكرًا.

قال الحسن رحمه الله: من وسَّع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأى له. وقال قتادة: بغت القوم أمرُ الله، وما أخذ الله قومًا قط إلا عند سلوتهم ونعمتهم وغرتهم. فلا تغتروا بالله.

وفي الحديث: «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج» (١) رواه أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم.

وقال إسماعيل بن رافع: «من الأمن من مكر الله إقامة العبد على الذنب يتمنى على الله المغفرة» رواه ابن أبي حاتم.

وهذا هو تفسير المكر في قول بعض السلف: يستدرجهم الله (٢) بالنعم إذا عصوه،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٤٥)، والطبراني في الأوسط (٩/١١٠)، حديث (٩٢٧٢)، والطبري في تفسيره (٧/١٩٥) من حديث عقبة بن عامر. وهو صحيح، وانظر الصحيحة (٤١٣)، المشكاة (٥٢٠١).

(٢) أي: يأخذهم قليلاً قليلاً من حيث لا يعلمون، وذلك بأن يفتح لهم أبواب الرزق، ووجوه المعاش في الدنيا حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شيء كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا سَوَّأَ مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا

ويملى لهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر . وهذا هو معنى المكر والخديعة ونحو ذلك ، ذكره ابن جرير بمعناه .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦] .

لش: القنوط : استبعاد الفرج واليأس منه . وهو يقابل الأمن من مكر الله . وكلاهما ذنب عظيم . وتقدم ما فيه لمنافاته لكمال التوحيد .

وذكر المصنف رحمه الله ، تعالى هذه الآية مع التي قبلها تنبيهاً على أنه لا يجوز لمن خاف الله أن يقنط من رحمته ، بل يكون خائفاً راجياً ، يخاف ذنوبه ويعمل بطاعته ، ويرجو رحمته ، كما قال تعالى: ﴿أَمَنْ هُوَ قَتِيلٌ ۚ إِنَّهُ أَلِيلٌ سَاجِدٌ ۖ وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ ۚ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ۚ﴾ [الزمر: ٩] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨] .

فالرجاء مع المعصية وترك الطاعة غرور من الشيطان ، ليقع العبد في المخاوف مع ترك الأسباب المنجية من المهالك ، بخلاف حال أهل الإيمان الذين أخذوا بأسباب النجاة خوفاً من الله تعالى وهرباً من عقابه ، وطمعاً في المغفرة ورجاء لثوابه .

والمعنى : أن الله تعالى حكى قول خليله إبراهيم عليه السلام ، لما بشرته الملائكة بابه إسحاق: ﴿قَالَ أَتَشْرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ سَتَىٰ الْكَبِيرُ ۚ قِمَ تَبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤] لأن العادة أن الرجل إذا كبر سنه وسن زوجته استبعد أن يولد له منها . والله على كل شيء قدير ، فقالت الملائكة: ﴿يَسِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٥٥] الذي لا ريب فيه . فإن الله إذا أراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْفَاطِنِينَ﴾ [الحجر: ٥٥] أي من الآيسين ، فقال عليه السلام: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦] فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك وأعظم ، لكنه - والله أعلم - قال ذلك على وجه التعجب .

قوله: ﴿إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦] قال بعضهم: إلا المخطئون طريق الصواب ، أو إلا الكافرون . كقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَا يَأْتِشْنَ مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سئل عن

الكبائر، فقال: «الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله»^(١).

ثالث: هذا الحديث رواه البزار وابن أبي حاتم من طريق شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس ورجاله ثقات إلا شبيب بن بشر. فقال ابن معين: ثقة. ولينه أبو حاتم. وقال ابن كثير: في إسناده نظر. والأشبه أن يكون موقوفاً.

قوله: (الشرك بالله) هو أكبر الكبائر.

قال ابن القيم رحمه الله: الشرك بالله هضم للربوبية وتنقص للإلهية، وسوء ظن برب العالمين. انتهى. ولقد صدق ونصح.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَقُولُوكَ﴾ [الأنعام: ١٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] ولهذا لا يغفره الله إلا بالتوبة منه.

قوله: (واليأس من روح الله) أي قطع الرجاء والأمل من الله فيما يخافه ويرجوه، وذلك إساءة ظن بالله، وجهل به وبسعة رحمته وجوده ومغفرته.

قوله: (والأمن من مكر الله) أي من استدراجه للعبد وسلبه ما أعطاه من الإيمان، نعوذ بالله من ذلك. وذلك جهل بالله وبقدرته، وثقة بالنفس وعجب بها.

واعلم أن هذا الحديث لم يرد به حصر الكبائر في الثلاث، بل الكبائر كثيرة وهذه الثلاث من أكبر الكبائر المذكورة في الكتاب والسنة، وضابطها:

ما قاله المحققون من العلماء: كل ذنب ختمه الله بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب. زاد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: أو نفى الإيمان.

قلت: ومن برئ منه رسول الله ﷺ، أو قال: «ليس منا من فعل كذا وكذا».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «أكبر الكبائر الإشراك بالله والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله»^(٢) رواه عبد الرزاق).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم والبزار كما في تفسير ابن كثير (١/ ٤٨٥)، وقال: «وفي إسناده نظر، والأشبه أن يكون موقوفاً».

(٢) أخرجه معمر بن راشد في جامعه (١٠/ ٤٥٩)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٥٦)، حديث (٨٧٨٣، ٨٧٨٤، ٨٧٨٥)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٢٠)، حديث (١٠٥٠) وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٨٥): «وهو صحيح بلا شك».

نقل: ورواه ابن جرير بأسانيد صحاح عن ابن مسعود رضي الله عنه .
 قوله : (أكبر الكبائر : الإشراف بالله) أي : في ربوبيته أو عبادته . وهذا بالإجماع .
 قوله : (والقنوط من رحمة الله) قال أبو السعادات : هو أشد اليأس .
 وفيه : التنبيه على الرجاء والخوف ، فإذا خاف فلا يقنط ولا ييأس ، بل يرجو
 رحمة الله . وكان السلف يستحبون أن يقوى في الصحة الخوف ، وفي المرض الرجاء .
 وهذه طريقة أبي سليمان الداراني وغيره . قال : وينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه
 الخوف ، فإذا غلب الرجاء خسف القلب . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ
 لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [المائدة : ١٢] وقال : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ [النور : ٣٧]
 وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ ١٠٠ ﴿ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ
 لَهَا سَاهُونَ ﴾ [المؤمنون : ٦٠-٦١] وقال تعالى : ﴿ آمَنَ هُوَ قَلِيلٌ مَّا نَاءَ الْبَلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ
 وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [الزمر : ٩] الآية . قدم الحذر على الرجاء في هذه الآية .

